صفوفة

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص ورقة د. طه جابر العلواني بعنوان

الأبعاد المعرفية لحوار الحضارات

مقدمة إلى مؤتمر المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية

تموز ١٩٩٥.

لعل ما أثير في الفترة الأخيرة من اهتمام بحوار الحضارات يمثّل حالة بالغة التعبير عن عمق الأزمة التي يعيشها الفكر العربيّ والإسلامي[١]. وتتجلّى هذه الأزمة في حالة التبعيّة الظاهرة المتمثلة في نقل الأطر النظرية والفكرية وتبنّيها بصورة أيديولوجيّة، أو في التبعيّة الكامنة التي تتمثل في فكر المقاربات والمقارنات. وجوهر الأزمة أن من يحدد الإشكالات، ويثير القضايا، ويحدد أجندة البحث والاهتمام، وأولويّات التفكير، يقع خارج البيئة الفكريّة والاجتماعيّة العربيّة والإسلاميّة، ويتحرك في إطار نموذج معرفيّ، ومعطيات اجتماعيّة وتاريخيّة، ومصالح اقتصاديّة وسياسيّة، وقيم وأهداف مختلفة، إن لم تكن متعارضة متناقضة، مع تلك التي يتحرك في إطارها الباحث والمفكر العربيّ والمسلم.

وقد ارتبطت قضيّة الحوار بين الحضارات في طرحها الأخير بما أثير حول دراسة صموئيل هنتجتون[٢]، عن نفس الموضوع، فبدأ العقل المسلم والعربي ينشغل بهذه القضيّة وتستحوذ على أولوياته، دون أن يكون ذلك نابعاً من ضرورة اجتماعيّة، أو إشكالية فكرية، أو مصلحة سياسية للمجتمعات العربيّة والإسلاميّة، ودون أن ينبع الطرح من داخل هذه المجتمعات بل جاء من خارجها. وقد حاول هذا العقل أن يقدم إجابات عن سؤال لم ينبع منه ولم يمثل إشكاليّة ملحة، على الأقل في المرحلة الراهنة لهذه المجتمعات العربيّة الإسلاميّة، إذا ما قيس بما يواجه هذه المجتمعات من قضايا وتحديات أخرى.

وبغض النظر عن موضع هذه القضيّة في إطار أولويات الاهتمام في الفكر العربي المعاصر، فإنّه ينبغي التأكيد على أن الاهتمام بها يعكس حالة من ردود الأفعال، وليس الأفعال، ويعبر عن وضعيّة معينة تُصنع فيها الإشكالات خارج الحدود ويتم تصديرها. فبعد أن كانت تقدم إلينا الحلول سابقة التجهيز، أصبحت الآن، ومع التطوّر الفكريّ في الوطن العربي،

تقدم إلينا الإشكالات فنتشغل بقضايا لم تكن نابعة من ذواتنا أو معبرة عن همومنا واهتماماتنا؛ ولذلك فإن التركيز على هذه القضية لا ينبغي النظر إليه على أنه مصادرة على المطلوب أو دعوة لغلق باب الحوار حول القضيّة؛ ولكنّه فقط لإثارة الانتباه إلى قضية معرفية أكثر خطورة وأهمية ينبغي التركيز عليها والتيقظ لها وإثارة الانتباه إليها.

وبعد هذه الملاحظة الأولية يمكن تناول الموضوع من خلال النقاط التالية:

أولاً: حوار الحضارات والحوار العربي الأوروبي

في أعقاب حرب رمضان/ أكتوبر ١٩٧٣ برزت فكرة الحوار العربي الأوروبي وعُقدت مجموعة من اللقاءات بين مفكرين وسياسيين عرب وأوروبيين، وصدرت عدة دراسات حول الموضوع، أهمها دراسة للعالم الدكتور حامد ربيع ودراسة للدكتور أحمد صدقي الدجاني[٣]. وقد تركز الحوار في حينه على قضايا سياسية وحضارية وفكرية متعددة، ولكنه لم يلق قدراً يلحظ من الاهتمام، إذا ما قيس بمقدار الزخم الذي أحاط مقالة صموئيل هنتجتون، وذلك لأن الطرف الأوروبي كان يقصد بالحوار أهدافاً سياسية واقتصاديّة، فتحول الحوار إلى صيغة تفاوضيّة ولم يعد حواراً فكريّاً حضاريّاً.

كذلك تعددت لقاءات وندوات الحوار الإسلامي المسيحي أو الإسلامي الكاثوليكي، وكان للأمير الحسن بن طلال فيها بخاصة مبادرات معروفة، وأيضاً لم يحظها زخم إعلامي أو اهتمام عربيّ، ولم تلق اهتماماً يتوازى مع أهميتها. ولعل ذلك يعود بالأساس إلى عاملين أساسيين... أولهما: أن الغرب الآن يطلق مقولة «حوار الحضارات» وهي تتضمن في جوهرها صدام وصراع الحضارات. وثانيهما: أن حوار الحضارات في طرحه الأخير يتسق مع المعطيات التاريخيّة والسياسيّة والاستراتيجيّة للعالم الغربيّ بعد انتهاء الشيوعيّة، وبعد تطهير البيت الأوروبيّ من الانقسام الأيديولوجي ما بين شيوعية ورأسمالية، والتحول إلى محاولة صنع أعداء من خارج النسق الحضاري الغربيّ خصوصاً في حوض حضارة الاسلام.

وهذا يؤكد مرة أخرى، على أن القضية التي قد تم طرحها ليس فقط في غير أوانها بالنسبة لنا، وإنما أيضاً على غير وجهها وبغير مضمونها.

May 31 '95 23:13 I.I.I.T. JORDAN TEL 962-6-611420 P. 1

ثانياً : حوار فكري أم تفاوض سياسي.

إن مفهوم الحوار ينصرف إلى أحد معنيين، أولهما: يعني منهاجية فلسفية أساسها قرع الحجة بالحجة، واتخاذ موقف المعارضة المنطقية بغية الكشف عن الحقيقة، وعلى العكس يشير المعنى الثاني مفاهيم التفاوض الدولي، التي تحكمها عناصر القوة وليس الحق، وتهدف إلى تحقيق المصلحة وليس الوصول إلى الحقيقة أو تجليتها.

ومن خلال هذين المفهومين يمكن طرح تساؤل أساسي هو: أي حوار حضاريّ؟ أهو حوار يقصد الوصول إلى الحقيقة والانصياع لها بعد إقرارها... أم هو عمل يحقق مصالح معينة ويفرضها بمنطق القوة وليس بقوة الحق؟.

وهنا نجد أن من الضروري تحديد المقصد من الحوار وأهدافه، وإمكانية تحقيق هذه الأهداف، وقدرة أطراف الحوار على الالتزام بنتيجة الحوار وتفعيلها؛ إذ لا يمكن أن يتم التحاور إلا بين أطراف على حد أدنى من النديّة والتساوي في القوة والتكافؤ في الوزن. كذلك ينبغي تحديد أي النمطين من الحوار نريد؟... أهو حوار الحضارات باعتبارها حاضراً وأنساقاً ثقافية وفكريّة وعقائديّة وقيماً ومعايير ورؤية للعالم والانسان والكون والحياة وخالق هذا الكون وواهب الحياة... أم هو حوار الحضارات بمعنى التفاوض بين نظم سياسية وتكتلات إقليمية أو أحلاف عسكرية؟

فالناظر في مفهوم الحضارات، كما يعبر عنها معظم مفكري الغرب، يجد تداخلاً بين الفكري الثقافي الديني من ناحية، وبين السياسي الاقتصادي الاستراتيجي من ناحية أخرى، بصورة تجعل من الأبعاد الأولى محددات للتمايز بين الحضارات، ولكنها ليست غايات أو مقاصد في ذاتها، بل هي معطيات تحدد الفواصل والغايات فقط وتنصب أساساً على الأبعاد الاقتصادية والسياسية الاستراتيجية. وكان الحوار ينبغي أن يتم بين المختلفين حضارياً بالمعنى الثقافي الاعتقادي، بقصد تحقيق أهداف سياسية واقتصادية وبهذا يتداخل الحوار مع التفاوض، ويتم اختزال مفهوم الحضارة في أبعاده السياسيّة الذرائعيّة. وطبقاً لهذا المفهوم ظهرت معظم الكتابات التي تعلقت بهذا الموضوع، إن لم يكن كلها.

ثانياً : حوار فكري أم تفاوض سياسي.

إن مفهوم الحوار ينصرف إلى أحد معنيين، أولهما: يعني منهاجية فلسفية أساسها قرع الحجة بالحجة، واتخاذ موقف المعارضة المنطقية بغية الكشف عن الحقيقة، وعلى العكس يشير المعنى الثاني مفاهيم التفاوض الدولي، التي تحكمها عناصر القوة وليس الحق، وتهدف إلى تحقيق المصلحة وليس الوصول إلى الحقيقة أو تجليتها.

ومن خلال هذين المفهومين يمكن طرح تساؤل أساسي هو: أي حوار حضاريّ؟ أهو حوار يقصد الوصول إلى الحقيقة والانصياع لها بعد إقرارها... أم هو عمل يحقق مصالح معينة ويفرضها بمنطق القوة وليس بقوة الحق؟.

وهنا نجد أن من الضروري تحديد المقصد من الحوار وأهدافه، وإمكانية تحقيق هذه الأهداف، وقدرة أطراف الحوار على الالتزام بنتيجة الحوار وتفعيلها؛ إذ لا يمكن أن يتم التحاور إلا بين أطراف على حد أدنى من النّديّة والتساوي في القوة والتكافؤ في الوزن. كذلك ينبغي تحديد أي النمطين من الحوار نريد؟... أهو حوار الحضارات باعتبارها حاضراً وأنساقاً ثقافية وفكريّة وعقائديّة وقيماً ومعايير ورؤية للعالم والانسان والكون والحياة وخالق هذا الكون وواهب الحياة... أم هو حوار الحضارات بمعنى التفاوض بين نظم سياسية وتكتلات إقليمية أو أحلاف عسكرية؟

فالناظر في مفهوم الحضارات، كما يعبر عنها معظم مفكري الغرب، يجد تداخلاً بين الفكري الثقافي الديني من ناحية، وبين السياسي الاقتصادي الاستراتيجي من ناحية أخرى، بصورة تجعل من الأبعاد الأولى محددات للتمايز بين الحضارات، ولكنها ليست غايات أو مقاصد في ذاتها، بل هي معطيات تحدد الفواصل والغايات فقط وتنصب أساساً على الأبعاد الاقتصادية والسياسية الاستراتيجية. وكان الحوار ينبغي أن يتم بين المختلفين حضارياً بالمعنى الثقافي الاعتقادي، بقصد تحقيق أهداف سياسية واقتصادية وبهذا يتداخل الحوار مع التفاوض، ويتم اختزال مفهوم الحضارة في أبعاده السياسيّة الذرائعيّة. وطبقاً لهذا المفهوم ظهرت معظم الكتابات التي تعلقت بهذا الموضوع، إن لم يكن كلها.

ومن هنا فإنّه لابد من التأكيد على ما ينبغي أن نركز عليه من مفاهيم الحوار والحضارة، بالمعنى الذي ينبثق من تقاليدنا الفكرية وأنساقنا المعرفيّة. أما التفاوض السياسي فله مجاله البحثي وخطابه الفكري الخاص به، وكذلك له رجاله والمختصصون فيه.

ثالثاً : أهم القضايا الأساسية لحوار الحضارات.

حتى يمكن الحديث عن حوار حضارات بالمعنى الحقيقي، بعيداً عن المصالح السياسية لقوى أو لدول معينة، وبعيداً كذلك عن الإنسياق وراء أطروحات قد لا تعبّر عن حاجات انسانيّة حقيقية؛ وحتى يمكن تأسيس هذا الحوار على قواعد معرفية مستقيمة، ينبغي التركيز على القضايا التالية:

١. إن مفهوم الحوار في هذا السياق ينصرف إلى المعنى المتعلق بالتحاور والاختلاف حول الأفكار والقيم والمعايير، والأنماط المعرفية والمنهجيّة، وقواعد السلوك والثقافة؛ وإن هدف هذا الحوار هو الوصول إلى الحقيقة واعتبارها ضالة ينبغي البحث والتفتيش عنها والانصياع لها عندما توجد وتعرف.

٢. إن الحضارة ينبغي أن يتم تحديدها في قواعدها وأسسها الثابتة، التي تتضمن رؤية للعالم تحدد الموقف من الإله والانسان والكون والحياة، بما يعنيه ذلك من تحديد الموقف من المسخرات في الكون والبيئة، والموقف من «الآخر» المنضوي تحت حضارة أخرى.

٣. إن الاختلاف بين الحضارات سنّة من سنن الله في الكون، وأنه لا ينبغي ولا يمكن أن يزال، ومن ثم لا ينبغي السعي لتذويب الفوارق والاختلافات «ولذلك خلقهم»، وإن هذا الاختلاف والتعدد والتنوع غايته التعارف والتعايش والإفادة المتبادلة.

٤. إن لكل انسان، ومن ثم لكل أمة وحضارة، حق الاختيار وحريته؛ ومن ثم ينبغي أن يحرر الإنسان من القهر والإجبار أو الإكراه أو تزييف الوعي أو الغزو الفكري أو غسيل الدماغ... الخ. ولابد أن يؤسس الاختيار على اقتناع نابع من حرية الاختيار.

٥. إن الفواصل الحقيقية بين الحضارات تكمن في النظم المعرفيّة والأنساق العقائديّة ورؤى العالم، وإن المنجزات المادية والنظم الإدارية هي نتيجة لذلك، وليست أساساً له، ومن ثم ينبغي أن يتم التحاور حول الأسس والفواصل الحقيقية، وليس حول الثمرات والنتائج.

٦. إن التعاون والتعايش بين المختلفين هو وسيلة البقاء للجنس البشري، وليس التصارع والتقاتل؛ ومن ثم لا ينبغي النظر إلى «الآخر» على أنه عدو وينبغي قهره، وإنما على أنه إنسان مكرم ينبغي التعامل معه بصورة تحقق حريته وكرامته.

٧. إن رسالة الإسلام ليست قومية أو عنصرية أو إقليمية، ومن ثم لا ينبغي تجسيدها في قوم أو إقليم، ولكنّ لها تجليات متعددة ومتنوعة. فإذا نظر إلى الإسلام كحضارة، فينبغي ألا تنحصر في الشرق الأوسط أو العالم العربي، ولكن لابد أن تشمل جميع الجماعات والمجتمعات الإسلامية في أي مكان وجدت.

٨. إن الاسلام لم يعرف في تاريخه مفاهيم التصادم الحضاري أو الحروب الحضاريّة -كما هي عادة الغرب- ولكنّه اقتصر فقط على الأبعاد العسكرية التي تقف فقط عند الجيوش. فلم يعرف تاريخ الإسلام المقاطعة الاقتصادية أو حصار المجتمعات أو تجويع الأطفال والنساء، بل على العكس كان المسلمون طوال تاريخهم يقومون بتأمين طرق التجارة الموصلة لأوروبا. كذلك لم يعرف تاريخ الاسلام إبادة لحضارات أو شعوب أو ثقافات، ولكنّه عرف تكييف الثقافات المختلفة والحفاظ عليها وتطعيمها بالقيم، ولذلك نجد التعدد في الملبس والمسكن والعمران صورة واضحة داخل حضارة الاسلام، لا تكاد تجد لها مثيلاً في أي حضارة أخرى.

٩. إن حوار الحضارات يعني الاعتراف بأن هناك حضارات متعددة وليست حضارة عالميّة واحدة نسخت الحضارات السابقة عليها. ومن ثم فلا بد من إعادة النظر في المناهج والنظريّات والعلوم الناتجة عن حضارات عالمنا المعاصر، وليس فقط ما ينتج عن الحضارة العالمية المركزيّة - التي يزعم البعض أنها خلاصة التطور البشري ونهايته، ونهاية التاريخ. وطالما أن الحضارات الأخرى لم تزل قائمة وينبغي أن تدخل في حوار، لأن هذه العلوم والمناهج والنظريات ستكون موضوعاً للتحاور، ومن ثم لا ينبغي الانطلاق ومعطيات الحضارة الغربية. كقاعدة أساسية أو مسلّمة، وبذلك يكون من

الضروري تطوير العلوم والمناهج والنظريات الخاصة بحضارتنا، والنابعة من مصادرنا المعرفية المتمثلة في القرآن الكريم والسنة المطهرة، ثم تطوير مناهج للتعامل مع تراثنا ومع العلوم النابعة من الحضارات الأخرى حتى نستفيد منها دون الوقوع في خصوصياتها وتحيزاتها التي قد تتعاكس مع أنساقنا المعرفيّة والقيميّة والعقائديّة.

تلك هي أهم القضايا التي ينبغي أن ينصرف الاهتمام إليها قبل الدخول في حوار حقيقي للحضارات، وبدونها سيكون الأمر تفاوضاً سياسياً ينبغي أن يوكل إلى رجال السياسة والدبلوماسية وليس لأرباب القرطاس والقلم.

المراجع

(١) أنظر في الأزمة الفكرية:

- د. طه جابر العلواني، الأزمة الفكرية المعاصرة: تشخيص ومقترحات علاج، واشنطن، المعهد العالمي للفكر الإسلامي. الطبعة الثانية، ١٩٩٢.

- د. عبدالحميد أبوسليمان، أزمة العقل المسلم، واشنطن، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٩٩١.

(٢) انظر مقال صموئيل هنتجتون، صراع الحضارات، نشر في مجلة الشؤون الخارجية الأمريكية صيف ١٩٩٣/ حزيران ١٩٩٣م، وترجم في القاهرة بعنوان الاسلام والغرب: أفاق الصدام، ترجمة مجدي شرشر، نشر في مكتبة مدبولي ١٩٩٥.

(٣) - د. حامد ربيع، الحوار العربي الأوروبي واستراتيجية التعامل مع الدول الكبرى، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٠.

- د. حامد ربيع، والحوار العربي الأوروبي ومنطق التعامل الدولي، بغداد، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٨٣.

- د. أحمد صدقي الدجاني، الحوار العربي الأوروبي: وجهة نظر عربية ووثائق، القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٧٦.